أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في الحج مع أهله

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله يهدي إلى الطيب من القول ويهدي إلى صراط الحميد، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أدبه ربه فأحسن تأديبه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أرعى الخلق لقريب، وأحناهم على رحم، وأكثرهم إحسانًا إلى أهل، شهد المخالطون له صلى الله عليه وسلم بذلك، فوصفه واصفهم بأنه صلى الله عليه وسلم كان أبر الناس، وأوصل الناس. [مسلم: ١٠٧٢].

وقد كان من أعظم ما وصل به صلى الله عليه وسلم أهله، وبر أقاربه به: دعوته إياهم إلى الخير، وحرصه على هدايتهم ونجاتهم من النار، ومن ذلك: وقوفه صلى الله عليه وسلم بمكة على الصفا - ينذرهم مغبة الشرك - قائلا: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

وقوله لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة: «أَيْ عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». [صحيح البخاري: رقم ٣٨٨٤].

وفي الحج تجلى برّه صلى الله عليه وسلم بأهله، وصلته لرحمه، وإحسانه إلى أقاربه في صور شتى ومشاهد مختلفة، ولعل من أبرز أحواله صلى الله عليه وسلم ما يلي:

أولا: تعليمهم أحكام النسك:

اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم أهل بيته أحكام النسك؛ ليصفو لهم تقربهم، وتصح منهم عبادتهم، ومن دلائل ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: «افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لاَ تَطُوفِي بِالْبَيْتِ» [صحيح مسلم ١٢١١].

وقوله صلى الله عليه وسلم لأغيلمة بني عبد المطلب ليلة مزدلفة: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس». [صحيح سنن الترمذي رقم: ٧٠٩].

ولم يكن يكتفي في تفقيههم بمجرد التوجيه المباشر لهم بل كان صلى الله عليه وسلم يحاورهم، ويجيب عن أسئلتهم، كما يدل عليه

حديث حفصة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَحْلِلْنَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: فَمَا يَمْنَعُكَ؟ فَقَالَ: لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَسْتُ أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ هَدْيِي». [البخاري: ٤٣٩٨].

وفي وقتنا نرى أن هذا الأمر عزيز، إلا من رحم ربي، من القلة النادرة من الناس من يهتمون بتعليم أهاليهم الأحكام قبل فعلها، ويفهمونهم بحكم النسك ومقاصده، ويجيبون عن استفساراتهم، فكن أخي الحبيب من هذا الصنف الفاضل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». [صحيح رقم: ٣٠٥٧].

وقم بالأمر على وجهه، فإنك مؤتمن على أهلك، وراعٍ لهم، وكل راع مسئول بين يدي مولاه عما استرعاه، قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». [صحيح الجامع: ٤٥٦٩].

ولك أسوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بنذارة أهله وتعليمهم قبل الناس، امتثالاً لأمر ربه عز وجل في قوله: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » [الشعراء: ٢١٤].

ثانيًا: إشغالهم بأمر النسك قبل الخروج له:

أشغل النبي صلى الله عليه وسلم أهله النسك قبل خروجه إلى الموسم، ومن دلائل ذلك: قول عائشة رضي الله عنها: «فَتَلْتُ لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَعْنِي: الْقَلَائِدَ - قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ». [صحيح البخاري: ١٧٠٤]، فما أحرى بك أن تهتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فتشغل نفسك وأهل بيتك بأمر النسك وتعلق قلبك وقلوبهم به، قبل السفر إلى مواضعه.

ثالثا: الحرص على براءة ذممهم:

أوجب الله تعالى حج بيته الحرام على القادرين فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » [آل عمران: ٩٧]. ولذا فلا تزال ذمة المستطيع مشغولة به، ولا تبرأ إلا بأدائه، ومن تأمل في سيرته صلى الله عليه وسلم في الحج شاهد بجلاء حرصه صلى الله عليه وسلم على براءة ذمم أهل بيته، ومن أدلة ذلك: اصطحابه صلى الله عليه وسلم في خروجه للحج جميع زوجاته التسع رضي الله عنهن. [صحيح سنن أبي داود رقم: ١٥١٥، وزاد المعاد لابن القيم: ١٠٦/٢].

ومنها: خروجه صلى الله عليه وسلم بضعفة أهله معه. [صحيح البخاري: ١٦٧٨، ١٦٨٠، وصحيح مسلم: ١٢٩٣].

ومنها: تحريضه صلى الله عليه وسلم لآل بيته حتى المريض منهم على المسارعة بأداء النسك، ومن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم دخل على ابنة عمه: ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنها وهي عليلة، فقال لها: «مَا يَمْنَعُكِ يَا عَمَّتَاهُ مِنَ الْحَجِّ؟ فَقَالَتْ: أَنَا امْرَأَةٌ سَقِيمَةٌ، وَأَنَا أَخَافُ الْحَبْسَ، قَالَ: فَأَحْرِمِي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلَّكِ حَيْثُ حُبِسْتِ». [صحيح البخاري: رقم ٥٠٨٩].

رابعًا: تشجيعهم على الخير:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث آل بيته رضي الله عنهم على فعل الطاعات، ويشجّعهم على التزود من الخيرات، ومن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم حين مرَّ على بني عمومته، وهم ينزعون الماء من زمزم ويسقون الناس، خاطبهم قائلاً:

«انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ». [صحيح مسلم رقم: ١٢١٨].

والمقصود: أنَّ الناس سيتأسون به صلى الله عليه وسلم في القيام بالسقاية فيزاحمونهم فيها.

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: «اعملوا، فإنكم على عمل صالح، لولا أن تُغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه - يعني عاتقه-». [صحيح البخاري رقم: ١٦٣٦].

بل إنه صلى الله عليه وسلم كان ييسر لهم ذلك، ومنه: إذنه لعمه العباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة ليالي أيام التشريق من أجل سقايته الحجيج. [صحيح البخاري: ١٧٤٥].

فإن أردت أن تتضاعف حسناتك، وتثقل موازينك بأعمال غيرك، وأن تحسن إلى الحجيج، وتربي أهل بيتك على القربات، فدُلهم على الخير، ويسّره عليهم، وشجّعهم على الإحسان إلى المحتاجين، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». [صحيح مسلم رقم: ٢٦٧٤].

خامسًا: الاستعانة بالله ثم بهم:

استعان النبي صلى الله عليه وسلم بآل بيته رضي

الله عنهم في بعض أموره، ومن ذلك: جعله صلى الله عليه وسلم زوجه عائشة تفتل له قلائد بُدنه من صوف - كان عندها بالمدينة - قبل أن يحرم. [صحيح البخاري رقم ١٦٩٦، ١٧٠٤، ١٧٠٥].

ومنها: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: الْقُطْ لِي حَصًى فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ. [صحيح سنن ابن ماجه رقم: ٢٤٥٥].

ومنها إعطاؤه صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ما بقي من بُدْنِه لينحرها. [صحيح ابن ماجه: ٢٤٩٤].

ومنها: أمره صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه بأن يقوم على بُدْنِه، وبأن يتصدق على الناس بلحومها وجلودها وأجلتها. [صحيح البخاري: ١٧١٨، ٢٢٩٩].

ومنها: استسقاؤه صلى الله عليه وسلم من بني عمِّه حين جاء إليهم وهم يسقون الناس من زمزم، فقال لعمه العباس رضي الله عنه: «اسقني فشرب». [صحيح البخاري: ١٦٣٥].

فيا من ينشد المعين البعيد فهلاّ القريب.. هذا هدي نبيك صلى الله عليه وسلم.

سادسًا: وقايتهم من الفتن:

ومنها: لَيُّه صلى الله عليه وسلم لعنق الفضل بن العباس رضي الله عنهما حين أخذ ينظر إلى الفتاة الخثعمية، عن علي رضي الله عنه قال: «قال العباس: يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما». [صحيح سنن الترمذي: ٧٠٢].

ومنها: توجيهه صلى الله عليه وسلم لنسائه بعدم مخالطة الرجال في الطواف، مع أنهن رضي الله عنهن كن يطفن معهم: قوله صلى الله عليه وسلم لأم سلمة رضي الله عنها حين اشتكت إليه أنها شاكية، قال صلى الله عليه وسلم: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة». [صحيح البخاري: ١٦١٩].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لها: «إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفي على بعيرك، والناس يصلون، ففعلت، ولم تصل حتى خرجت». صحيح البخاري رقم (١٦٢٦).

سابعًا: الرفق بهم والتيسير عليهم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في الحج رفيقًا بآل بيته، رحيمًا بهم، يعطف على ضعيفهم، ويختار الأيسر لهم.

منها: اختيار صلى الله عليه وسلم الأيسر لزوجاته، وأمرهن به. لحديث حفصة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَحْلِلْنَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ». [صحيح البخاري: ٤٣٩٨].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لما دخل على ضباعة بنت الزبير وهي وجعة: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي». [صحيح البخاري: ٥٠٨٩].

ومنها: إذنه صلى الله عليه وسلم لعمِّه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يبيت بمكة ليالي منها، من أجل سقايته. [صحيح البخاري: ١٦٣٤].

ثامنًا: الصبر عليهم:

إثبات صبره صلى الله عليه وسلم في الحج على آل بيته رضي الله عنهم لا يحتاج إلى دليل؛ إذ كان صلى الله عليه وسلم معلمًا لهم وقائمًا بشئونهم في وقت واحد، وكان في أهله من كبر سنه كزوجه سودة، والمريض الشاكي كضباعة وأم سلمة، وكثير من النساء كابنته فاطمة وجميع زوجاته، وغلمان بني عبد المطلب وبني هاشم، فما رُئي صبر كصبره، ولا مَن هو أكثر احتمالاً لأهله منه صلى الله عليه وسلم، إذ وجَّه وأرشد، ورحم ورفق، وأحسن وأنفق، وراعى وواسى، وفاكه ولاطف، وصان الحقوق، وشجَّع على الخير، ودبَّر شأنهم أحسن تدبير، وقام بالأمر خير قيام، كل ذلك بنفس منبسطة وصدر منشرح، ودون أن يُسمع منه صلى الله عليه وسلم لفظ نابٍ، أو يصدر منه مَنّ أو أذى.

فيا لله.. تلك الشمائل المحمدية، والأخلاق القرآنية، فالصبر على الأهل مهمة شاقة، وعمل جليل لا يطيقه إلا الكبار، ولا يحتمله إلا الرجال، وبخاصة في موسم الحج الذي يزداد فيه العدد وتعظم المشقة وتشتد.

تاسعًا: رعايتهم ومواساتهم:

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يراعي خواطر أهله، فيفعل ما يريدون إذا كان الأمر لا يعارض شرع الله تعالى، ويواسي أقاربه حين كان الأمر يقع على خلاف ما يشتهون، وأبرز ما كان هذا الأمر في الحج: مع زوجه عائشة رضي الله

عنها، وذلك حين دخل عليها وهي تبكي؛ لأنها مُنعت العمرة المفردة بسبب الحيض، فواساها صلى الله عليه وسلم وطيب خاطرها قائلاً لها: «فلا يضرك، أنت من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجك عسى الله أن يرزقكها». [صحيح البخاري: ١٧٨٨، وصحيح مسلم: ١٢١١].

وحين قالت رضي الله عنها: «يَا رَسُول اللَّه، أَتَرْجِعُ صَوَاحِبِي بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَأَرْجِعُ أَنَا بِالْحَجِّ فَأَمَرَ رَسُول اَللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَذَهَبَ بِهَا إِلَى التَّنْعِيم فَلَبَّتْ بِالْعُمْرَةِ». [صحيح البخاري: ١٥٦١، وصحيح مسلم: ١٢١١].

فمن يا ترى يفعل اليوم بأهله في الحج كفعله صلى الله عليه وسلم؟

عاشرًا: التلطف معهم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في الحج جميل العشرة، حسن المنطق، يتودد إلى أهله، ويتلطف معهم، ويباسط صبيانهم ويداعبهم، يقول جابر رضي الله عنه واصفًا إياه حين أهلّ صلى الله عليه وسلم بحج، وأهلت عائشة رضي الله عنها بعمرة: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً سَهْلاً إِذَا هَوِيَتْ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ». [صحيح مسلم: ١٢١٣].

منها: قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، حين حاضت فدخل عليها وهي تبكي: «مَا يُبْكِيكِ يَا هَنْتَاهُ؟» [صحيح البخاري رقم ١٥٦٠]. [معنى: [يا هنتاه: يا هذه].

فإلى الله المشتكى من قوم هجروا في التعامل مع أهاليهم هذا الخلق النبوي الكريم، حتى صار أهالي كثير منهم لا يعرفون منهم في موسم الحج أو العمرة غير المشاحنة وسوء العشرة والتحقير والسخرية، والمن والإساءة، والتضجر والشكوى، والغلظة والفظاظة، بل قد يصل الأمر في أحيان إلى حد السب والشتم، بل ربما يصل الأمر إلى الضرب والقذف.

يرحم الله ابن عمر رضي الله عنهما: «كان له فسطاطان: أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاقب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم»؛ لقوله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» [الحج: ٢٥]، فكيف بمن يريدُ ويفعل؟

الحادي عشر: الإحسان إليهم:

تعددت وجوه إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى آل بيته وتنوعت بصورة جعلت المتأمل يجزم بأن كل أحواله صلى الله عليه وسلم معهم إحسان؛ إذ ما من جانب إلا وأنت راءٍ بأنّ فضله صلى الله عليه وسلم عليهم ظاهر.

منها: كما في قصة ضباعة رضي الله عنها حين دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: «أَرَدْتِ الْحَجَّ قَالَتْ: وَاللَّه لا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً، فَقَالَ لَهَا: حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اَللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي». [صحيح البخاري: ٥٠٨٩، وصحيح مسلم: ١٢٠٧].

ومنها: إردافه لابن عمِّه الفضل رضي الله عنهما من مزدلفة إلى منى. [صحيح البخاري: ١٥٤٤ي].

ومنها: هديه صلى الله عليه وسلم عن نسائه رضي الله عنهن إذ ذبح البقر عنهن من غير أمرهن. [صحيح البخاري ١٧٠٩].

فانهج أخي هذا النهج مع أهلك، فهم أحق بإحسانك الديني والدنيوي تحظ بالأجر الجزيل وتبصر بركات ذلك عاجلاً وآجلاً.

الثاني عشر: حماية حقوقهم:

صان النبي صلى الله عليه وسلم حقوق آل بيته رضي الله عنهم، وحرص على حفظها، وعدم تعدي الآخرين عليها، وأبرز ما يتجلى ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت، ويجعل يستلم الحجر بمحجنه، ثم أتى السقاية بعدما فرغ، وبنو عمِّه ينزعون منها، فقال: ناولوني، فرُفع له الدلو فشرب، ثم قال: لولا أنَّ الناس يتخذونه نسكًا، ويغلبونكم عليه لنزعت معكم». [صحيح البخاري رقم: ١٦٣٦].

هذه بعض جوانب أحواله صلى الله عليه وسلم في الحج مع أهل بيته، ونحن مأمورون بالتأسي به صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا» [الأحزاب: ٢١].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبسنة سيد المرسلين، وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد.